

في لغة «الكرازة» أو «التربية المسيحية»

الأب فيكتور شلحت اليسوعي^٥

لما انعقد مجمع الأساقفة في رومة العام ١٩٧٧، وجه رسالة إلى شعب الله في شأن التعليم المسيحي ورد فيها ما يلي: «إنّ التربية المسيحية تنطلق من فعل الإيمان، كما تقود إلى فعل الإيمان» (رقم ٨). ويشمل فعل الإيمان هذا بدرجة أولى الاعتراف بقيامة المسيح وتأوينها في مختلف ظروف حياتنا. لكنّ عملية التربية المسيحية لن تفضي إلى هذه النتيجة ما لم تأخذ بعين الاعتبار عنصر الكلام، بل وأسلوب الكلام بالذات^(١). فالتربية المسيحية أو التعليم المسيحي والوعظ والكرازة تلجأ جميعها إلى الكلام، وتستمدّ منه الأدوات اللازمة والأساليب لتحقيق هدفها في نقل بشرى الإنجيل.

تعدّد أساليب الكلام في التعبير عن الفكر

عندما نتكلّم نشعر بأنّه بإمكاننا التعبير عن الفكرة الواحدة بطرائق مختلفة، ممّا يجعلنا نتساءل كيف نمرض الفكرة وكيف نطرحها لكي تجتذب انتباه المستمع وإصغائه وتقبّله ما نريد إيصاله إليه. ونختير هكذا أنّ المتكلّم قد يستخدم عدّة أقتية أو أساليب، لنقل ما يريد أن ينقله إلى

(٥) باحث له مؤلّفات في شؤون الإيمان والتربية. - ومقاله هذا فصل من كتاب معدّ للطح عنوانه رفيق المعلم في التربية المسيحية.

(١) Odile Dubuisson: *L'acte catéchétique*, Le Centurion, Paris, 1982.

الآخر، وأنَّ وَقَعَ كلامه على المستمع متوقّف على أسلوب الكلام.

ولدينا في الكلام عدّة أقبية أو أساليب أو مستويات، توفّر لنا وسائط مختلفة لبناء نموذج عمليّة الكرازة بعامة، وما يقوم به معلّم التربية المسيحية بخاصّة. ومن الجدير بالذكر، أنّ هذه الوسائط ليست خاصّة بالكلام الدينيّ، بل هي طرائق مختلفة تتعلّق بسير عمليّة الكلام مهما كان مضمونها. فلنوضح ذلك بمثالٍ بسيطٍ مستمدّ من الحياة المدرسيّة: لدينا ثلاث صيغ أو ثلاثة أساليب للتعبير عن الموضوع نفسه، وهي:

١ - في أثناء الاستراحة، تلعب سميرة وحنان ومريم بالقفز على الحبل، فتمسك سميرة وحنان بطرفيّ الحبل، وتقفز مريم.

٢ - المربيّة: يا سميرة وحنان ومريم، يجب أن تُلعبن بالحبل. هلّمي يا حنان، أعطي سميرة طرف الحبل، ولنقفز مريم.

٣ - المربيّة: هلّمي يا مريم لنلعب بالحبل! - مريم: ليس لي رغبة في ذلك، بل أفضل اللعب بالكرة. - أسرعي يا مريم، إن أتيت، ستقفزين الأولى.

فالصيغة الأولى هي مجرد عرض الوقائع: تلعب الفتيات الثلاث بالحبل، اثنتان تمسكان بطرفيّ الحبل، والثالثة تقفز. وتعرض الصيغة الثانية فكرة اللعب بالحبل، مع نصيحة وأمر. أمّا الصيغة الثالثة فتعرض ما تشعر به الفتيات إزاء اللعب بالحبل.

ففي الصيغة الأولى تتوالى المشاهد كالصور على شاشة التلفزيون، وفي الثانية تتجمّع الوقائع حول تصوّر المربيّة للاستراحة، حول فكرة. أمّا الصيغة الثالثة فتعرض لنا ما تشعر به الفتيات، ومن خلال ردود فعلهنّ، ندرك أنّ الموضوع يدور على لعبة الحبل. ومن الجدير بالذكر أنّ الصيغ الثلاث هذه تمثّل أساليب مختلفة للتعبير عن «لعبة الحبل». وعليه نقول إنّ الكلام في الصيغة الأولى هو كلام إخباريّ وقائميّ. وفي الثانية، هو كلام توجيهيّ مبادئيّ. وفي الثالثة هو كلام وجوديّ. فنحن إذا إزاء ثلاثة

مستويات ينصبّ فيها ضرورة كلّ كلام وكلّ خطاب وكلّ عمليّة اتّصال.
ونحن نستخدم هذا المستوى أو ذلك بحسب ما نريد أن نبلّغه المخاطب،
وبحسب النتيجة التي نرتجّها.

أساليب الكلام الثلاثة في التعليم المسيحي والكراسة

لكلّ من الصيغ أو الأساليب الثلاثة المذكورة إمكاناتها الخاصّة
ودورها وحدودها في عمليّة الكرازة بعامة، والتربية المسيحيّة بخاصّة.

فبوساطة الكلام الوقائي والإخباري، يتكلّم معلّم التربية المسيحيّة
أو الراعظ على الموضوع بحدّ ذاته، ولا تظهر في كلامه أيّ علاقة بينه
وبين موضوعه. فهو يعبر عمّا يظهر للعيان وكأنّه يعطي صورةً ضوئيّة لما
يتكلّم عليه، إذ يذكر تفاصيل الأشياء وألوانها وخصائصها المادّيّة
ومظهرها الخارجيّ، فتختفي والحالة هذه شخصيّة وراء كلماته: إنّهُ مجرد
آلة إرسال. أمّا المرسل إليه، فيتلقّى الموضوع مجردًا عن أيّ تأويل، وتمرّ
الوقائع أمامه على حدّ ما يجري في شريط سينمائي وثائقيّ. فينظر إليه ثمّ
ينهض وينصرف.

ولهذا الأسلوب من الكلام مكانته في الكرازة، كما هو الحال في
أيّ عمليّة اتّصال أخرى، ولكنها مكانة محدودة، وتُستخدم لنقل ما يحتاج
المسيحيّ إلى معرفته من معلومات وأحداث لدعم تفكيره الإيمانيّ. إنّنا
نستخدم هذا الأسلوب عندما نعرض حادثة إنجيليّة مثلاً، كحلول الروح
القدس على التلاميذ يومّ العنصرة. فنذكر وجود الرسل في مكان واحد
والأبواب مغلقة، والصوت المدويّ من السماء، وظهور الألسنة وكأنّها
من نار، وانقسامها ووقوفها على كلّ من الرسل، وامتلاء هؤلاء من الروح
القدس، وتكلّمهم بلغات غير لغتهم. غير أنّ هذا الأسلوب لا يسمح
للمتكلّم بالتعبير عن وقع هذا الحدث على حياته هو، ولا عن التزامه
الشخصيّ، وبالتالي لا يتيح له إمكانيّة التعبير عن إيمانه، ولا يفقد ضرورة
المرسلّ إليه إلى الاعتراف بالإيمان.

أما الكلام المبادئي والتوجيهي فيقيم جسراً بين شاطئي الكلام، أي العلاقة بين المتكلم والمخاطب، بين المرسل والمرسل إليه، بين المرئي والمرئي. فالتكلم يتوجه إلى عقل المخاطب، وإلى ذكائه ووجدانه، فيحوّل الواقع إلى فكرة عامة، يشرحها ويوضحها مستعيناً بالمشابهة والأمثلة. وهو بهذا الأسلوب يفضل أيضاً الأفكار والأشياء، ويميّز فيما بين المناسب وغير المناسب، بين الصحيح والخاطئ، بين الصالح والشرير، ويبيّن بالتالي ما هو مسموح به وما هو محرّم، الأمر الذي يعطي هذا الأسلوب بعداً توجيهياً أخلاقياً.

ولهذا الأسلوب مكانة مهمّة في الحقل الديني. فعلم اللاهوت وتفسير الكتاب المقدس وتاريخ الكنيسة وشرح العقائد والوصايا تستخدم جميعها هذا الأسلوب من الكلام، ويوساطته يستطيع المتكلم أن يوضح العقائد الدينية وينقلها إلى الآخرين، كما هو الحال مثلاً عندما يشرح مفاعيل الروح القدس، وانتقاله إلى الكنيسة، ومن خلال الكنيسة والأسرار إلى المؤمنين. غير أن هذا الأسلوب لا يصلح عادة للتعبير عن التزام المتكلم الإيماني، ولا يسمح للمرئي أو الواعظ أن يعبر عن علاقته الشخصية بما يرويه أو يشرحه. إن هذا الأسلوب يعبر عن موقف فكري، ولا يسمح بعد بالاعتراف الحياتي بالإيمان. وهذا ما يجري عندما يعرض المتكلم موضوعاً دينياً بدون أن يكون مقتنعاً به تماماً، فيعرضه ويشرحه كما يشرح مادة علمية فحسب. وقد يحدث ذلك أحياناً في بعض المدارس عندما يُطلب مثلاً إلى أستاذ ما لمجرد كونه مسيحياً أن يدرّس مادة التعليم المسيحي، وهو غريب عنها، فيقوم بها لكسب المكافأة المالية.

أما الأسلوب الوجودي من الكلام فيتيح للمتكلم أن يعبر عن الموضوع وعن علاقته الشخصية به، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. ففي حين كان المتكلم في الأسلوب الإخباري يتوارى وراء وصفه الموضوع، وفي الأسلوب المبادئي التوجيهي يقتصر على شرحه وتفسيره، تظهر في الأسلوب الوجودي علاقته الشخصية بما يعرضه من حقائق وعقائد. فهو لا يوظف في حديثه ذاكرته وعقله وذكائه فحسب، بل شخصه بكامله وقلبه

وارادته وحرّيته أيضًا. والمرّبي المسيحي لا يستطيع القيام بذلك إلا إذا كان ذا خبرة روحية شخصية. وفي هذه الحالة لن تقتصر مهمته على تكرار عبارات تعلّمها في الكتب، بل تصبح أيضًا تعبيرًا بطريقته الخاصة عن خبرة شخصية وشهادة لما يؤمن به ويعيشه.

ويُصبح أيضًا هذا الأسلوب للمتكلم أن يبيّن كيف يمسّ ما يقوله حياته في الصميم، وأن يتحدّث عن تفاعله مع مضمون كلامه، وأن يعبرَ عمّا يشير في نفسه من عواطف ورغبات. فإذا كان يتكلّم على الروح الذي منحه يسوعُ تلاميذه، فيشير إلى الروح القدس الساكن فيه، أو إلى علاقته به في الحياة، ولجوئه إليه، أو إلى ما يثلّثه منه من غذاء روحيّ في القربان الأقدس، وما يستمدّ منه في الصلاة من نور وفرح في مختلف ظروف حياته، ومن قوّة وشجاعة في خدمة الملكوت، معبرًا عن ذلك بتعايره الشخصية. فيستثفّ المستمع عندئذ من كلامه أنّ المرّبي أو المعلم يعيش هو أيضًا ما يتكلّم فيه.

هذا الأسلوب من الكلام هو أسلوب الاعتراف بالإيمان والشهادة الحياتية، وهو الأسلوب المميّز لعرض الإيمان، ذلك بأنّه يفسح في المجال للمرّبي أو الواعظ أن يعبرَ بأسلوبه الشخصي عن إعجابه بتعاليم يسوع وأعماله، وعن التزامه الحياتيّ بحدث موته وقيامته حبًا لنا. وهذا المستوى من الكلام جدير بأن يقود المرسل إليه هو أيضًا إلى الشهادة الحياتية والاعتراف بالإيمان.

أسلوب الكلام في الكرازة والتعليم المسيحيّ

يُتيح لنا الحديث عن مستويات الكلام الثلاثة أن نعرف أيّ علاقة يقيمها المرّبي المسيحيّ نفسه بمضمون كلامه، وبالتالي أن نعرف نوعيّة العلاقة التي يُميّرها بين المترّبي وما يُعرض عليه من حقائق دينيّة.

لذلك يجدر بنا أن نتبّه أولًا إلى ظاهرة شائعة في التعليم المسيحيّ أو في الكرازة. فغالبًا ما نخلط بين مضمون الكرازة وعمليّة الكرازة،

وغالبًا ما نهتمّ، أكثر ما نهتمّ، بنقل مضمون الإيمان وتحديد ما يترجّب على المسيحي أن يؤمن به ويمارسه. غير أنّه في الواقع لا يوجد مضمون إيمان مستقلّ عن إيمان ناقل الإيمان، بحيث نستطيع أن ننقله كما تُنقل مثلًا قطعة أثاث من مكان إلى آخر. إنّ فاعليّة مضمون الإيمان مرتبطة بأسلوب الكلام المستعمل، ومن الأهميّة بمكان أن نستعمل الأسلوب المناسب للكراسة والتربية المسيحيّة التي تهدف أولًا وآخرًا إلى إنعاش الإيمان وتنميته. إذ إنّهُ يختلف وقع مضمون الكلام على المستمع باختلاف أسلوب الكلام الذي يلجأ إليه المتكلّم في عمليّة التربية المسيحيّة. فبالأسلوب الوقائيّ الإخباريّ يتقل الاعتراف بالإيمان إلى المتربيّ بطريقة حياديّة ويترك له مهمّة تأويله كما يشاء. وبالأسلوب المبادئيّ التوجيهيّ يتقل الاعتراف بالإيمان بطريقة نظريّة على أنّه شرح فكرة أو عقيدة. أمّا بالأسلوب الوجوديّ فيصبح الاعتراف بالإيمان شهادةً حيائيّةً. ويستقل مضمون الإيمان إلى المتربيّ في علاقته بالمتربيّ، بمقدار ما يوضّح هذا الأخير علاقته بمضمون كلامه، ويحسن استعمال هذه الأساليب في عمليّة التربية المسيحيّة. فإذا ما كان يروي حدثًا أو يشرح فكرة أو عقيدة، فلن يسترسل في شرحه، بل يتقل سريعًا إلى الأسلوب الوجوديّ؛ فنظهور حيثنذ في كلامه العلاقة التي يقيمها هو بمضمون إيمانه.

فعلى المتربيّ إذن أن يدرك أولًا أنّ هدف التربية المسيحيّة هو قيادة المؤمن إلى الاعتراف بإيمانه في مختلف ظروف حياته، لأنّ التربية المسيحيّة، كما رأينا، «تنطلق من الإيمان وتقود إلى الإيمان»، فإلى تعميق الإيمان. وثانيًا أنّ الأسلوب المناسب لتحقيق هذا الهدف هو الأسلوب الوجوديّ، أي أسلوب الشهادة الشخصيّة. فوقع كلامه على المؤمن، أناشكًا كان أمّ بالعلّاء، يختلف تمامًا إذا قال: «أنا فلان أوّمن بأنّ يسوع المسيح مات رقام حبًّا لي وسيقيمني»، عمّا إذا قال مفترًا: «قام يسوع من بين الأمرات، معناه أنّه في اليوم الثالث بعد مرته، قد جمع بقلوته الذاتيّة بين روحه وجسده وخرج من القبر». وفي هذه الحالة، لن تكون التربية المسيحيّة مجرد عرض معلومات تعلّمها المتربيّ وحفظها، فيكرّرها، بل

تصبح شهادة حياتية صادقة، تعبر عن خبرة روحية شخصية. وهذا ما يلحظه مستمعوه ويتأثرونه فتأثرين به، مما يحملنا على القول إن الشهادة الحياتية وحدها تترك أثراً بليغاً في المؤمن، وتشجعه على الاعتراف بإيمانه اعترافاً حياتياً.

ونقول أخيراً إنه لا يكفي المرابي أن يستخدم الأسلوب الوجودي لتحقيق التربية المسيحية هدفها، بل عليه، حين يستعمل صيغة المتكلم أن يقوم بذلك بصفة كونه فرداً في المجتمع الكنسي، إذ إن المرابي يمثل، في عملية التربية المسيحية، الجماعة المسيحية، أي الكنيسة التي تنقل إيمانها إلى أعضائها. وهكذا يتمكن هؤلاء من إعلان إيمانهم هم أيضاً، كل بمفرده وجميعهم معاً، بالاشتراك مع المرابي وبالاتحاد بالكنيسة جمعاء.

وختاماً، نذكر أن من توجّه إليهم الكرازة أو التربية المسيحية، أو التعليم المسيحي، مدعوون إلى تبني موقف المرابي الإيماني، ولكنهم يتقون، في هذه المرحلة، أحراراً، لأن علاقة المؤمن بالله هي مسألة شخصية. وبمقدار ما يقرون بأن الإيمان يسوع الذي مات وقام حباً لهم، يمس حياتهم في الصميم، فإنهم يعلنون إيمانهم ويوجهون مع المرابي الصلاة إلى يسوع الذي يرسل روحه القدس لمواصلة عمله الخلاصية. وهذه الصلاة لا يمكن أن نعبر عنها إلا برسطة الأسلوب الوجودي.

من منشورات دار المشرق

